

عقدة النسب وأثرها في شعر الحطيئة وأبي نواس

The kinship knot and its impact on the poetry Al-Hutay'a and Abu nawas

د. أمينة عبدالله أحمد الحشاني. محاضر بقسم اللغة العربية. كلية التربية بنغازي. جامعة بنغازي .

Dr: Amina. A.A. Al hashani. Lecturer, Department of Arabic Language. Benghazi College of Education. Benghazi University

Email: abdallahamena4@gmail.com

تاريخ نشر البحث
2021 / 11 / 7

تاريخ قبول البحث
2021 / 10 / 19

تاريخ استلام البحث
2021 / 9 / 28

الملخص: لقد كانت الصلة وثيقة بين دراسة الأدب وعلم النفس، والإشارات النفسية موجودة في كتب النقد القديمة لكنها لم تتبلور بصورة واضحة إلا في العصر الحديث، وقد أضفت على الدراسات النقدية مسحة جديدة، وأصبح علم النفس أكثر مساهمة في دراسة الأدب، وقد تجلّى هذا الاتجاه في دراسة العقاد لابن الرومي وبشار وأبي العلاء وأبي نواس، ودراسة المازني لابن الرومي في كتابه حصاد الهشيم، والنويه في دراسته عن أبي نواس ودراسته شخصية بشار، كما تناول النقد كثيرا من الشعراء وفق مناهج النقد الحديثة لكن دراساتهم لا تخلو من وجهات نظر نفسانية . قد سعت هذه الدراسة التي تناولت الشاعرين (الحطيئة وأبا نواس) إلى إيضاح أثر عقدة النسب في شعر الشاعرين، وقد أظهرت الدراسة أن عقدة النسب كانت هي البذرة الأولى التي أثمرت ما نقرأه لهذين الشاعرين، لكن عقدة النسب اقترنت عند الحطيئة بعقدة تسمى (عقدة نابليون) لما اعتري جسده من اختلال ولذلك اتجه إلى الهجاء المقذع أما أبو نواس فقد كان تكوينه الجسماني يختلف عن الحطيئة إذ إن دلالات تكوينه الجسماني إضافة إلى دلالات العصر أحواله إلى شخصية إباحية عاشقة للخمر والمجون .

الكلمات الدالة: العقدة، النسب المغموز، الحطيئة، أبو نواس، الشعر.

Abstract: There is a close relationship between the study of literature psychology, and psychological references are found in the ancient books of criticism, but it did not crystallize clearly except in the modern era. That there in Al-Akkad's study of Ibn Al-Roumi, Bashar, Abu Al-Ala and Abu Nawas, Al-Mazini's study of Ibn Al-Roumi in his book Harvest Al-Hashim, and Al-Nuwaihi in his study of Abu Nawas and his study about Bashar's personality.

This study, which deals with the two poets (Al-Hutay'a and Abu Nawas), seeks to clarify the effect of the lineage knot in the poetry of the two poets, When his body was disturbed and therefore he turned to abhorrent satire. As for Abu Nawas, his physical composition was different from Al-Hutay'a, as the indications of his physical formation in addition to the indications of the era referred him to a pornographic personality who loves alcohol and promiscuity.

Keywords: knot, incorrect origin, Al-Hutay'a, Abu Nawas ,Poetry.

المقدمة: أبت ظروف النشأة إلا أن تضع بصمتها على شخصيتي الحطيئة وأبي نواس، وإن اختلفت نهاية كلاهما، فالحطيئة مات ميتة أشبه بميتة الجاهلية، وذلك راجع إلى شخصيته المضطربة، كما أنه لم يكن واضحا في إسلامه فقد ارتد وأعلن ذلك في شعره، أما أبو نواس فقد وجدت له أشعار تنم عن ندم بالغ، وهي ليست زهديات كما يراها بعض النقاد، وإنما هي نوبات ندم تنتابه بين الفينة والفينة، وهي لحظة ضمير، ترجع إلى ثقافته التي تلقاها في البصرة، فقد كان مترددا مابين حلقات العلم، ورؤي أنه " كان عالما فقيها عارفا بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه" (ابن المعتز، 201، 1950)، هذه الثقافة لا بد أن يكون لها الأثر البالغ في هذه الصوحة المنقطعة.

مفهوم عقدة النسب:

العقدة في علم النفس هي مجموعة أفكار مشحونة إلى حد قوي بالانفعال، وهي أجزاء قاتمة في اللاوعي، وتوجه الفرد من دون معرفة منه في بعض أعماله (فضل الله، 2011، ص35)، وفي مدرسة التحليل النفسي تعرف بأنها المبعث على تصرفات لا واعية تصدر عن الشخص (رفيق، 2021، ص88)، أو هي اتجاه انفعالي لا شعوري لا يبرح يؤثر في التفكير والسلوك على الرغم مما أصابه من الكبت والنسيان (مراد، 2020، ص195).

لقد وجه الله الإنسان إلى استجلاء أسرار النفس في قوله تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا". (سورة الشمس: الآيات 7-10) دفعت هذه الدعوة العلماء إلى التأمل في النفس البشرية محاولين سير أغوارها والإلمام ببعض جوانبها، وباعتبار أن الإنتاج الأدبي مرآة لحياة الإنسان وصورة صادقة لمشاعره فقد أخذت الدراسات النقدية منحى نحو إقحام الدراسات النفسية في دراسة الشخصيات و الظواهر الأدبية.

إن الصلة وثيقة بين دراسة الأدب وعلم النفس والإشارات النفسية موجودة في كتب النقد القديمة، لكنها لم تتبلور بصورة واضحة إلا مع بداية العصر الحديث، وقد أضفت على الدراسات النقدية مسحة جديدة، وأصبح علم النفس أكثر مساهمة في دراسة الأدب.

وقد كان الشاعران علمين من أعلام الشعر العربي، وقد أبدع كلاهما في فن من فنون الشعر وعلا نجمها فيه، الحطيئة هجاء، والنواصي شاعر الخمريات دون منازع، وهذا التميز جعلهما موضوعا لهذه الدراسة التي تخضع لمناهج النقد التاريخي والنفسى والاجتماعي إذ إن تبني منهاج معين في دراسة الشخصيات الأدبية كثيرا ما يوقع الدارس في أحكام خاطئة.

وعلى هذا الأساس كان بحثي الموسوم ب(عقدة النسب وأثرها في شعر الحطيئة وأبي نواس) وقد حاولت في هذا البحث تبين أثر هذه العقدة في توجه الحطيئة إلى الهجاء والنواصي إلى المجون والخمر.

وكانت الإشكاليات الأساسية التي يطرحها موضوع البحث تكمن في كيف ساهمت عقدة النسب في جعل الحطيئة هجاء والنواصي شاعر مجون وخمر تزعم ريادة هذا الفن في تاريخ الشعر العربي دون منازع.

إن دراسة مقارنة بين هذين الشاعرين الكبيرين توقفنا عند نقاط كثيرة قد التقى عندها هذان الشاعران، جعلت من الأول هجاء يخشاه الناس ويتجنب لسانه، ومن الآخر حاملا لواء التجديد و متمردا على مجتمعه، وثائرا على كل قديم، حتى رُجَّ به في زمرة الشعوبيين، كما جعلته في صدارة شعراء الخمريات بل زعيمهم دون منازع، ولقد كانت عقدة النسب البذرة الأولى التي أثمرت ما نقرأه عن هاتين الشخصيتين بما فيهما من انحراف، وبما عُرف عنهما من هجاء مقذع في الأولى ومجون و تهتك في الثانية.

الحطيئة:

جرول بن أوس بن مالك العبسي (النويري، 2005، ص173)، ينتهي نسبه إلى مُضَر، يلقب بالحطيئة، ويكنى بأبي مُليكة، ومُليكة ابنته، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم ثم ارتدَّ (الأصفهاني، د.ت، 149) لكن المطلاع على سيرته يدرك أنه لم يتأثر تأثراً قويا بالإسلام ولم يظهر إلا النزر القليل من صور ذلك التأثير في حين يبدو فيه جليا جفاؤه لأهل الإسلام" (الحطيئة، 18، 1993).

صفاته الجسدية:

كان قصيرا قريبا من الأرض لذلك سمي بالحطيئة، ضئيل الجسد، كان أققم أي أن فكه الأسفل كان بارزا، كما أن الدمامة كانت تغلب على سائر ملامحه، الاختلال يعتريه في جسده ويجعله يتوهم أنه في حالة تخالف أحوال سائر الناس؛ فهو لا يشبههم أو بالأحرى يراهم ينعمون بما يستحيل عليه أن ينعم به من شعور التكافؤ، وصحة البدن، والظهور بمظهر الرجولة، ولعل حامل هذه الصفات يصنفه علماء النفس ضمن المرضى النفسيين الذين يعانون عقدة نفسية يطلق عليها عقدة (نابليون) وهي "اعتقاد قديم مفاده أن الذكور قصار القامة يعوضون شعورهم بقصر قامتهم من خلال تصرفات أكثر عدوانية من نظرائهم طوال القامة" (زيدان، 2015، ص86) وهو ما يعرف في علم النفس بعقدة نابليون. (معلوف، 2003، ص72)، وقد استخدم رائد علم النفس النمساوي الفريد أدلر نابليون بونابرت مثالا على شخص أراد تعويض عقدة نقصه، فقد كان نابليون يشعر بعيب خلقي ويظن أنه قصير القامة، وقد قاده هذا الشعور إلى الانجراف إلى السلوك الاستبدادي والعدوان عبر الحروب والمعارك. (المسلماني، 2018، ص305)، ويقال إن هتلر وموسوليني وفرانكو وستالين كانوا على شاكلة نابليون من قصر القامة، وقد حاولوا تعويض شعورهم بالنقص من خلال الحصول على شخصية قوية عن طريق النفوذ السياسي والحروب بعد أن عز عليهم أن يغيروا من أجسامهم وقاماتهم (محسن، 1979، ص89).

نسب مغموز

إلى جانب الدمامة وقصر القامة تطل عقدة أشد على نفس أي إنسان فما بالك بشاعر يحمل بين أضلعه قلباً رقيقاً، وروحاً حساسة، قد حنَّ عليه القدر أن يعيش مغموراً في نسبه في بيئة تتعالى فيها الصيحات القبلية والاعتزاز بالأنساب، ينقل الأصفهاني عن الكلبي قوله: " كان الحطيئة مغمور النسب وكان من أولاد الزنا الذين شُرُفُوا" (الأصفهاني، دت، ج2، 150) ، وكانت أمه – الضراء- أمة لأوس بن مالك فأعلقها بالحطيئة ورحل عنها، وكان لأوس امرأة ذُهلوية هي بنت رباح بن عمرو بن عوف بن الحارث، وكان لها أخ يقال له: الأفقم، يذكر الأصفهاني أنه كان: " طويلاً أققم، صغير العينين، مضغوط اللحيين، فولدت الضراء الحطيئة فجاءت به شبيهاً بالأفقم، فقالت لها مولاتها: من أين هذا الصبي؟ فقالت لها: من أخيك، وهابت أن تقول لها من زوجك فشبهته بأخيها " (الأصفهاني، دت، ج2، 151) ومات أوس دون أن يعترف به .

الطعن في النسب والبعد النفسي

الطعن في نسبه جعله متذبذباً ينتقل بين القبائل، ليجد له نسباً وكان يدرك أن نسبته لا تصح في بني عبس، كما أنها لا تصح في بني دُهل، وأنه متدافع الأصل مشوب، فهو حيناً ينتمي إلى هؤلاء وحيناً آخر ينتمي إلى أولئك دون أن يستقر على حال من الأحوال، ذُكر أنه قدِمَ مرة إلى أهل القرية وهم من بني دُهل وطلب ميراثه من الأفقم ومدحهم بقوله: (الحطيئة، 1993، 171)

لأمدحنَ بمدحة مذكورة أهل القرية من بني دُهل
الضامنون لمال جارهم حتى يتم نواهض البقل
قومٌ إذا انتسبوا ففرغهم فرعي وأنبت أصلهم أصلي

وقد أشفق عليه بنو الأفقم وأعطوه ثلاث نخلات، دُعيت نخلات أم مليكة، وهي امرأة الحطيئة، لكنه لم يقنع بها، وظل يطالب بميراثه ويلج بذلك، فامتنع عليه أبناء الأفقم، فثار عليهم، وحول مدحه لهم هجاءً بقوله: (الأصفهاني، دت، ج2، ص150)

إن اليمامة شر ساكنها أهل القرية من بني دُهل

وقيل إنه أتى أخويه من أوس بن مالك وقد كانت أمه لما أعتقتها بنت رباح اعترفت أنها اعتلقت من أوس بن مالك، فقال لهم: أفردوا إلي من مالكم قطعة فقالوا: لا، ولكن أقم معنا فنحن نواسيك فقال: (الأصفهاني، دت، ج2، 152)

أمرتُماني أن أُقيمَ عليكما كلاً لعمُر أبيكما الحباقي
عبدان خيرهما يُشَلُّ بضبعه شلّ الأجير قلائص الوراق

ثم انتسب إلى بكر بن وائل وقال في ذلك: (الحطيئة، 1993، ص184)

قومي بنو عمرو بن عوف إن أراد العلم عالم
قومٌ إذا ذهبت خضارمُ منهم خلقت خضارمُ
لا يفشلون ولا تبيح تُ على أئوْفهم الخواطمُ

ثم هجاهم فقال: (الحطيئة، 1933، ص169)

تمنيْتُ بكراً أن يكونوا عمارتي وقومي وبكر شر تلك القبائل
إذا قلتُ بكري نُبوتكم بحاجتي فياليتني من غير بكر بن وائل

قيل وسأل أمه من أبوه، فخلطت عيه فقال: (الحطيئة، 1993، ص140)

تقول لي الضراء لست لواحد ولا اثنين فانظر كيف شريك أولنكا
وأنت امرؤ تبغي أبا قد ضللتَه هبلت، أماً تستفق من ضلالكا

ثم إنه قدِمَ الكوفة فنزل في بني عوف بن عامر بن دُهل يسألهم وكان يزعم أنه منهم وقال في ذلك: (الحطيئة، 1993، ص115، 114)

سيرى أَمَامَ فَإِنَّ المالَ يجمعه سيئُ الإله وإقبالي وإدباري
إلى معاشرٍ منهم يا أَمَامَ أبي من آل عوف بُدوء غير أشرار
نمشي على ضوء أحساب أضأن لنا ما ضوأت ليلة القمر للشاري

هذا التنقل بين القبائل ينم عن معاني البؤس التي تقض مضجعه وتُصغِر شأنه حتى صار يسعى من قبيلة إلى أخرى ليتعين له أصلاً ويستقر في حمى قوم من الأقبام، لكنهم جميعاً يزورون عنه، وإذا ما عطفتهم الشفقة عليه نراهم لا يُعَيِّمون أن ينبذوه ويتنكروا له، ويعود الشاعر فيرى نفسه مغفل الوالد من دون سائر القوم فينقم على نفسه، وعلى واقعه، وعلى أولئك الذين يتعصبون عليه وينكرونه، وهذا جعله لا يتورع عن هجاء بني عبس وبني هذيل اللتين انتسب إليهما لأن نسبه غير

واضح وليس كما يرى النقاد أنه لم يخلص لقبيلته، فأبي قبيلة يختار وقد ظل نسبه مغموراً وأمه لم تصدقه القول، ولو صدقته القول لبقى في قبيلته، يدافع عنها، ويخلص لها ويتعصب إليها في زمن الفخر بالعصبيات (الراوي، 2007، ص184).

نفسية مضطربة:

أحاطت بهذا الرجل ظروف قاسية فهو حين استفاق على الحياة وجد نفسه موضع غمز في نسبه ووجد صورةً خلقية مشوهة، أخبر محمد بن الحسن بن دريد قال: أخبرني عبدالرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمه قال: "كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغمور النسب، فاسد الدين" (الأصفهاني، د.ت، ج2، ص155) كل هذه الصفات اجتمعت في هذا الرجل، فكانت مصدر قلق له إذ باتت تشعره بالدونية أمام أقرانه، وتجعل منه نفسية متذبذبة بشعورها بالمنكر، تكاد لا تتحرر منه، إلا في ثورة على ما دأب الإنسان على تقديسه جميعاً.

لقد كانت عقدة النسب من أقوى البواعث إلى هذا القلق والاضطراب، "إن اختفاء الأب عنه، وانسلاخه عن الأم بعد انجابها جرولاً- في ما بعد الحطيئة - العلة الكبرى في توجيه مسار الحطيئة في هذه الحياة وبما أن الشعر صورة لنفس الشاعر، وتعبيراً عما يجول في نفسه وخاطره، فإن هذا الأمر سيظل المطارد له ومنبع الشؤم في نفسه مدى الحياة." (هصيص، 2015، ص55) ولعلها هي التي دعت إلى غلبة الهجاء عليه، فصار يخشاه الناس لسلطة لسانه حتى عاد صورة مشوهة مدمومة لدى النقاد القدامى والمحدثين.

لم تكن حياته الاجتماعية طبيعية، إنما كانت مريرة تملؤها شكوى الزمان بكل أوقاته وتكشف عن "نظرة تشاؤمية لا مرحلة مؤقتة بل مستمرة ما عاش هذا الإنسان في ذلك العصر الذي ازدهر وجفاه" (هصيص، 2015، ص55).

إن هذه النفس المضطربة التي يلف جنباتها القلق لا تتورع في هجاء حتى من مدحتهم، فقد كانت تهجو دون أن تؤمن بما مدحت به، لأن ضعف النسب أبغدها عن العصبية التي كانت في أصل الحفاظ على الشرف والتعصب للمبادئ السامية.

وفي هجائه لا تجد ضعفاً أو ركافة في قول أو غضاضة في معنى أو اضطراباً في قافية، فقد سخر ملكته الشعرية الفذة لهذا الغرض فانصاعت له الألفاظ والمعاني، لكن معاناته النفسية جبلته على استثمارها في الهجاء دفاعاً عن نفسه النائية لا في خدمة الصفات المحمودة كالمروءة والخلق النبيل. (قميحة، 2003، صص18، 19)، ولقد كان عنيفاً في هجائه، سليط اللسان يخيف هجاءه سادات العرب، وحين وفد على المدينة رصدت قريش له العطايا خوفاً من شره (الأغاني، د.ت، ج2، ص156).

شمل تيار هجائه الجارف أقرب الناس إليه، فلم يسلم والداه من سلطة لسانه، هجا أمه عندما علم أنها تزوجت برجل يدعى كلب بن كُنيس بن جابر بن نهشل، وكان ولد زنى، وقد كان الحطيئة يرى أنها تستحق هذا الهجاء فقد كانت السبب الأساسي في تشكيل حياته الاجتماعية على ذلك النحو المخزي، إذ تلاعبت في نسبه لأبيه بين إنكار واعتراف، وجعلته يتخبط في نسبه بين قبيلتين ولم يغنم منهما شيئاً، وهو حين يهجوها يدعو عليها أن تلاقي العقوق من البنين: (الحطيئة، 1993، ص187، 188)

ولَقَاكَ الْعُقُوقَ مِنَ الْبَنِينَ
تَرَكْتَهُمْ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ
وَدُرُّكَ دُرٌّ جَاذِبَةٌ دَهِينِ
نِي بِمُشْتَدِّ قَوَاهُ وَلَا مَتِينِ

جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا مِنْ عَجُوزٍ
فَقَدْ سَوَّسَتْ أَمْرَ بَنِيكَ حَتَّى
لَسَانُكَ مَبْرَدٌ لَمْ يَبْقَ شَيْئاً
وَإِنْ تُخَلِّي وَأَمْرُكَ لَا تَصُورُ

وقال يهجوها أيضاً: (الحطيئة، 1993، ص187)

أَرَاكَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَا
وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَا
وَلَكِنْ لَا أَخَاكَ تَعْقِلِينَا
وَمَوْتُكَ قَدْ يَسُرُّ الصَّالِحِينَا

تَنَحَّيْ فَاجْلِسِي مِنِّي بَعِيداً
أَغْرَبَالاً إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرّاً
أَلَمْ أَوْضَحْ لَكَ الْبَغْضَاءَ مِنِّي
حَيَاتُكَ مَا عَلِمْتُ حَيَاةً سَوْءَ

وقال يهجو والده: (الحطيئة، 1993، صص167، 168)

أَبَا وَلِحَاكَ مِنْ عَمٍ وَخَالٍ
وَبُنْسَ الشَّيْخِ أَنْتَ لَدَى الْمَعَالِي
وَأَبْوَابِ السَّفَاهَةِ وَالضَّلَالِ

لِحَاكَ اللَّهُ ثُمَّ لِحَاكَ حَقّاً
فَنَعَمْ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمَخَازِي
جَمَعْتَ اللُّؤْمَ لَا حَيَاكَ رَبِّي

لا يعقل من إنسان سوي أن يهجو والديه، لكن هذه العقدة ملأت نفسه ألماً وحياته خيبات، وهو يرى أنهما أساس لهذه النفسية المضطربة، وهذه الآلام المنغصة لحياته، ففي قرارة نفسه شعور بالوضاعة والنقص الذي منعه أن يجارى أقرانه الذين يفخرون بأحسابهم وأنسابهم، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى هذا السلاح حماية لنفسه علماً تجد لها موقعا في هذا المجتمع، وإن رأى محقق ديوانه أن الحطيئة أدرك أن "الكلمة وحدها قادرة على أن توفر له الكرامة وتزيل عنه الشعور بالهانة والانتقاص اللذين لحقاه بسبب ذلك النسب المغموز" (الحطيئة، 1993، ص 10)، ومن ثم التحق بمدرسة زهير بن أبي سلمى تلك المدرسة التي أعارت الكلمة اهتماما خاصاً، وبذلك يرى أن "شراكة النسب وضعت له لم تجعل الحطيئة يقف مكتوف الأيدي أمام غمز الغامزين، كما لم تجعله يرضى أن يكون ضعيفاً بين أقوياء وهو الذي يجد في نفسه القدرة على امتلاك الكلمة التي كانت تمثل آنذاك أمضى الأسلحة وأشدّها فعالية وتأثيراً." (الحطيئة، 1993، ص 10).

ربما هذه وسيلة لجأ إليها الحطيئة، لكن عقدة النسب فرضت نفسها في مجتمع قبلي لا صوت يعلو فيه سوى صوت المفاخرة بالقبيلة والنسب، وإن استطاع الحطيئة أن يملك زمام الكلمة التي كانت تمثل أمضى الأسلحة لكنه بسبب هذه العقدة استثمرها في الهجاء الذي فرغ من خلاله مكبوتاته النفسية، وأعلن فيه ثورته الاجتماعية، سعياً لتحقيق الذات وتلبية لاحتياجاتها التي سُلِّبَتْ بفعل تقاليد اجتماعية تنظر بعين النقص والازدراء إلى أبناء الإماء والجواري، إضافة إلى تنقله في نسبه بين قبيلتين تنكرتا له فضاع نسبه بين الناس وضاع ماله بين القبيلتين، وربما تنقل بين أنساب قبائل العرب (الصفدي، 1987، ص 63)، فلو سلم له نسبه إلى قبيلة لاستثمر ملكته الشعرية فيما يخدم المروءة والخلق والصفات المحمودة كما عُرف عن زهير لاسيما أنه راوية شعره وأنه تخرج عليه.

قال يهجو زوجته: (الحطيئة، 1993، ص 128)

لها جسم يرغوث وساق بعوضة
تَبْرُقُ عيناها إذا ما رأيتها
لها مضحك كالْحَشِّ تَحْسِبُ أَنَّهَا
إذا عاين الشيطان صورة وجهها

ووجه كوجه القرد بل هو أقبح
وتَغْسُ في وجهه الجليس وتكُلُخُ
إذا ضَحِكْتُ في أوجه النَّاسِ تسَلُخُ
تعوّد منها حين يُمسي ويصْبُحُ

وهجاها أيضا بقوله: (الحطيئة، 1993، ص 128)

أطوف ما أطوف ثم أوي
إلى بيت قعيدته لكاع
كما امتد هجاؤه إلى نفسه، فقد أخبر ابن دريد قال حدثنا أبو حاتم قال : قال أبو عبيدة: كان الحطيئة بدياً هجاءً فالتمس ذات يوم إنساناً يهجو فلم يجد وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا بَشَرٍ فَمَا أُدْرِى لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ

وجعل يدهور هذا البيت في أشدائه ولا يرى إنساناً، إذ اطلع في ركي أو حوض فرأى وجهه فقال: (الحطيئة، 1993، ص 172)

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا
أرى لي وجهاً شوّه الله خَلْقَهُ

بَشَرٍ فَمَا أُدْرِى لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ
فَقَفَّيْ مِنْ وَجْهِهِ وَقَفَّيْ حَامِلُهُ

لقد استقل بالهجاء واعتمده في قصائد تامة غير أن الميزة التي ينفرد بها لم تكن في اقتصره على موضوع الهجاء بقدر ما كان في تلك الأبعاد النفسية التي تدلهم وراء معانيه، ولعله لا قبل لنا بتمثل شعر الحطيئة إلا إذا تتبعنا الجذور الخفية التي كانت تتفاعل وتنقمص بعضها ببعض وراء وجدانه، صادرة إلى الخارج بتلك المعاني المشوهة الكثيرة الغريبة والمنكر، ففي قوله "أبت شفتاي إلا تكلماً" يشعرون بأنه يود أن يهجو أحداً من الناس دون أن يقوى على التحرر من هذا الشعور وهذا يؤكد أن الشاعر كان يعيش حالة توتر ونقمة دائمين وأن الهجاء كان نوعاً من التخفيف والإجهاض بالألم الداخلي (إيليا حاوي، د.ت، ص 37)، وليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض النقاد من أن شهوة الهجاء قد تملكته حتى أنه لم ير حرجاً من هجاء نفسه" ذلك أن هذا التعليل يميل إلى إظهار الحطيئة بمظهر طريف غريب كان المؤرخون العرب يحرصون على تمثيله في كل أمر من الأمور التي تولوا تاريخها. والواقع أن انصراف الحطيئة للحط من قيمة أهله وقيمته هو بالذات ليس سوى تنفّس عن تلك الحالة السوداء التي تكبله وترهقه دون أن يرى بداً من التعبير عنها ("إيليا حاوي، د.ت، ص 36)، وفي مخاطبته لأخويه بعد اعتراف أمه له بعد وفاة أوس بن مالك بأنها حملت منه :

لا تجمعا مالي وعرضي باطلاً كلا لعمر أبيكما حباًق (الحطيئة، 1993، ص 138)

يكشف هذا البيت عن الألم الذي يعتصر قلب الحطيئة نتيجة جريرة أمه وأبيه، يقول لهما لا تأكلا مالي بالباطل وكأنه يريد أن يقول لهما يكفيني ما أعانيه من باطل النسب، وتريدان أن تأكلا أيضا مالي بالباطل ! (هصيص، 2015، ص 14) وهو حين يخاطب زوجته قائلاً : (الحطيئة، 1993، ص 36)

وقد قالت امامة هل تعزي
إذا ما العين فاض الدمع منها
إذا ما المرء بات عليه وكف
لعمرك ما رأيْتُ المرء تبقى
على ريب المنون تداولته
يَصْبُ إلى الحياة ويشتهيها
فمنها أن يقاد به بغير
ومنها أن ينوء على يديه
ويأخذه الهداج إذا هداه

فقلت اميم قد غلب العزاء
أقول بها قذى وهو البكاء
من الحدثان ليس له كفاء
طريقته وإن طال البقاء
فأفنته وليس لها فناء
وفي طول الحياة له عناء
ذلول حين يهترش الصَّراء
ويظهر في تراقيه انحناء
وليذ الحي في يده الرِّداء

يخبرها أن الصبر قد نفذ ولا عزاء لي حتى يصل الأمر به حد البكاء، لكن رجولته تأبى عليه البكاء، فيقول لها إن هذا الدمع الذي فاض إنما هو بسبب القذى... ثم يلتفت ليخاطب متخيلاً أو يخاطب نفسه فيقول إن المرء لا يبقى حاله كما هو مهما طال بقاؤه، فالموت يأخذه ويفنيه وليس للموت فناء، والقصيدة كما تبدو من ظاهرها أنها تصف حال الشيخ الكبير، ولكن "الغرض النفسي الذي يلح عليه - على الأغلب- هو إلحاح اللاوعي عنده وهو حاله التي مضت ولكنه جرح نازف لا يبرأ في نفسه وهو عدم معرفته النسب، فالحرمان من الأب، فتتابع المرازي عليه يوماً بعد يوم." (هصيص، 2015، ص50)

إن نفساً عاشت ظروفًا صعبةً كالتي ألمت بالحطيئة الذي: "كان ذا شرٍّ وسفَهٍ، ونسبُهُ مُتَدَاغٍ بين قبائل العرب، وكان ينتمي إلى كلٍّ واحدة منها إذا غضب على الآخرين." (الأصفهاني، دت، ج2، ص149) لا بد أن يغمرها الحزن والشتات النفسي والفكري، لقد عانى غموضاً واسعاً لفَه من كل جانب، لا أهل ولا يعرف له أب ولا أصل، مقطوع الجذور عاش منفرداً بأحزانه وحيداً مرفوضاً بين القبائل (عبدالفتاح، 1998، ص31)، وربما حتى المرأة التي اعتنت به لم تكن أمه الحقيقية لأنه لم يعرف له أصل، ظلت تقلقه رواسب الماضي، وتنغص حياته، وتجعله يثور على من حوله وعلى ذاته، ويتسلح بالهجاء المقذع الذي لم يسلم منه حتى من مدحهم، لقد جعل من شعره "سلاحاً ذا حدين حتى ينال فإن لم ينل أخاف المانع من سطوة لسانه لأنه كان يعلم مدى تأثير الشعر في نفوس العرب مدحاً كان أم هجاء، فلم يجد سلاحاً غيره بعد أن فقد النسب والمال ولم يكن ذا هيئة حسنة." (هصيص، 2015، ص22)

إن تذبذب هذه الشخصية وقلقها امتدَّ إلى العقيدة أيضاً، فتذبذب إسلامه، فلم يكن مسلماً صادقاً وإنما جارى به واقع العصر لأنه في نغمته وتقلبه لم يكن يسيغ الإيمان الغيبي الذي يكرّس المثل العليا والأخلاق السامية. فالحطيئة خرج على حدود الأخلاق والدين؛ لأن شخصيته المضطربة كانت تدفعه أبداً إلى الشك فلا يوفق إلى الإيمان بما كان يؤمن به سائر الناس، ولم يكد يموت النبي حتى ثار على أبي بكر وأعلن النعمة التي لم يكن يجروء على التصريح بها قبلاً يقول: (الحطيئة، 1993، ص109).

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا
أيورثها بكرة إذا مات بعده
فيا لعباد الله ما لأبي بكر
وتلك لعمري قاصمة الظهر

هذان البيتان من قصيدة أعلن فيها رده، يدلان على أن الشاعر لم يكد يفقه معنى الدين الجديد ولم يتمثل بروحه، إنما كان ينظر إليه كقيد يضيق به حتى إذا مات النبي تنفس الصعداء ثم عاد إلى الإسلام بعد أن أخفق المرتدون. كان الشعراء الهجاؤون يتخذون من شعر الهجاء غرضاً للدفاع عن أنفسهم وعن قبائلهم كما يتخذونه هدفاً للكسب وجمع المال، لكن موقف الإسلام من هذا الشعر قد جعل جذوته تخفت، فقد منعه، وجعله مقتصرًا على الرد والمنافحة عن الإسلام ونبيه، ضد مطاعن شعراء الكفر والضلال، لكن بعض الشعراء خرجوا عن هذا التحذير، ولم يذعنوا له، ومنهم الحطيئة الذي استمر يخوض في أعراض الناس وسبابهم.

لم يغير الإسلام من طبيعته المنحرفة، فبقي على حاله يهجو ويشتم، وقد سبب له لسانه السليط متاعب كثيرة، وبسبب شخصيته المضطربة لم يف أحياناً بوعوده التي أخذها على نفسه بعدم التعرض لأعراض الناس، فكان كثيراً ما يتخلى عنها ويعود إلى الهجاء، فقد عاد إلى الهجاء بعد أن تعهد للخليفة عمر بعدم التعرض لأعراض المسلمين مقابل مبلغ من المال دفعه له الخليفة عمر.

لقد حبسه الخليفة عمر بن الخطاب حين شكاه الزُّبَيْرُ قَان بن بذر، قال عمر بن الخطاب بم هجاك، قال: قال لي: (الحطيئة 1993، ص119)

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
لا يذهب العرف بين الله والناس

فقال عمر: ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة، فقال الزُّبْرَقَان: أوما تبلغ مروءتي إلا أن أكل وألبس! سل ابن الفريضة " يعني حسان بن ثابت " فقال عمر: عليَّ بحسَّان ، فجيء به، فقال: فقال: " أترأه هجاء؟" قال فقد هجاه وأقبح به ويقال: إنه سأل لبيداً عن ذلك فقال: ما سرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لي حُمْر النِّعَم – فأمر به عمر فُجِّلَ في نقير في بئر ثم أُلقي عليه شيء، قال "فجعل الحطيئة يستعطف عمر بالشعر قال وهو أول ما قاله: (الحطيئة، 1993، ص 164).

أعوذُ بِجِدِّكَ إني امرؤٌ سَقَتَنِي الأَعَادِي إِلَيْكَ السَّجَّالَا
فإنَّكَ خيرٌ من الزُّبْرَقَان أَشَدُّ نكالا وأَرْجَى نوالا
تَحْنَنُ عليَّ هَذَاكَ المَلِيكُ فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقَالَا
ولا تأخُذَنِي بقول الوُشَاةِ فإنَّ لكلِّ زمانٍ رجالا

فلم يلتفت إليه عمر حتى قال: (الحطيئة، 1993، ص 101، 102)

ماذا تقولُ لأفراخِ بذي مَرخ رُغِبَ الحَوَاصِلَ لاماءٍ ولا شَجَرُ
غيبَت كَاسِيَهُمْ فِي قَعَرٍ مُظْلَمَةٍ فاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ
أنتَ الأمين الذي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهَى البَشَرُ
لَمْ يُؤْثِرُوا بِهَا إِذْ قَدَّمُوا لَهَا لَكِنْ لأنفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الأَثَرُ

وشفع له عبدالرحمن بن عوف، فرق له وأخرجه وقال له: إياك وهجاء الناس؛ قال إذا يموت عيالي جوعا هذا مكسبي ومنه معاشي" (الأصفهاني، دت، 182)، وقيل كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره فأخرجه من السجن. وروى عن عبدالله بن المبارك أن عمر- رضي الله عنه- لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم؛ فقال الحطيئة في ذلك: (الحطيئة، 1993، ص 180)

وأخذت أطرار الكلام فلم تَدْعُ سَنَمًا يَضُرُّ ولا مَدِيحًا يَنْفَعُ
وحَمِيَّتَنِي عَرَضَ اللُّئِيمِ فَلَمْ يَخَفْ دَمِي وَأصبحَ آمناً لا يَفْرَعُ

وقام بعده مدة حياة عمر ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته، وقد هاجر إلى حوران قاصداً واليها علقمة بن علاثة بعد أن منعه الخليفة عمر من هجاء المسلمين واشترى منه أعراضهم، وما أن نفذ إلى حوران حتى لقي علقمة قد توفي، فوقف على قبره وأنشد قصيدة أجازها عليها ابنه بمئة ناقة مع مئة من أولادها، وبعدئذ نراه ينصرف إلى مدح الأشعرى، و ينتصر بقصيدة للوليد بن عقبة والي العراق. فهذه النفسية القلقة التي تعاني عقد جعلتها تنحرف بسلوكها فلا ترعى القيم ولا تعيرها وزنا ولهذا أنهى حياته بشتن نفسه وذمها.

وإلى جانب الهجاء الذي اتخذه سلاحاً للدفاع عن نفسه نقف على قصيدة مناسبتها قصة كرم ربما هي من نسج الخيال لما عرف عن الحطيئة أنه شاعر متكسب وأنه كان جشعا بخيلا، وربما أراد أن يرسم للناس مثلاً أعلى بالكرم ليحذوا الناس حذوه وأن يحقق مقصوده الذي يرمي إليه فقد تجب ما عهده الناس عنه من بخل ودناءة نفس. هذه القصة الشعرية التي نظمها الحطيئة ونسج أحداثها تظهره كريماً جواداً لا يتوانى في إكرام ضيفه حتى لو كلفه أغلى ما يملك، وهذا يتعارض مع صفات البخل والجشع التي عُرف بها، وربما دفعه هذا التعارض إلى شذخ خياله وإضفاء سعة عليه مكنته من نسج قصة لها بعدها الاجتماعي إذ إن صفة الكرم من الصفات التي يفتخر بها العربي الكريم وفي قصته يظهر نفسه أنه لا يقل عن غيره ممن يؤثرون الضيف ويكرمونه .

يهيئ الحطيئة لقصته المبتدعة التي تُعد ملمحاً واضحاً من ملامح السرد في الشعر العربي القديم، حيث استهلالية رسم فيها البيئة؛ تلك الصحراء القاحلة التي نزل فيها مع زوجته وأبنائه وفي هذه البيئة القاحلة لم يذوقوا طعاماً منذ ثلاث ليال حتى صاروا من الجوع كالأشباح .

يقول: (الحطيئة، 1993، ص 178)

وطاوي ثلاث، عاصب البطن مزمل ببببء لم يَعْرِفْ بها ساكناً رَسَما
أخو جفوة، فيه من الإنس وحشة يرى البؤس فيها، من شَرَّاسَتِهِ نُعْمَى
تَقَرَّدَ في شُعْبٍ عجوزاً إزاءها ثلاثُ أشباحٍ تَخَالُهُمُ يَهُما
حفاة، عراة ما اغتدوا خُبز ملة ولا عرفوا للْبُرِّ، مُذْ خُلِقُوا، طَعْمَا

وهم على هذا الحال يأتيهم الضيف .. مجيء الضيف هذه هي العقدة التي تحتاج إلى حل الضيف يتطلب إكرامه، وهذه صفة محمودة عند العرب، يفتخرون بها وهنا يتطلب من الحطيئة أن يكرم ضيفه وإلا يكون مسبةً عند العرب يعيرونه بالبخل في مجالسهم .

رأى شبهاً، وسط الظلام، فراحه
فقال ابنه، لما رآه بحيرة
ولا تعتذر بالعدم، علّ الذي طرا
أيّا أبتِ اذبحني ويسّر له طعماً
يظنّ لنا مالاً، فيوسّعنا دماً
إن إكرام الضيف في هذه القصة وهذه الأزمة التي خلقها الحطيئة كانت تحمل معنى واضحاً وهو أنه برغم هذا الظرف القاهر فقد سعى إلى إكرام ضيفه ولو كلفه الإقدام على تجربة قاسية (ذبح ابنه) وهنا وجد الحطيئة فرصة سانحة تشفي غليل نفسه فيعيد توازنها ومكانتها بين القبائل التي تزدريه فتتغاضى عن عيوبه، ولعله في كرمه فرصة للفخر بعد أن عجز عن الفخر بالنسب الذي ظل مبهماً له ما جعله ينتقل بين القبائل فيهبجو هذا ويمدح ذاك.

وإذ هو في حيرة، متوتر الأعصاب تجاه هذه الأزمة – أيذبح ابنه أم لا يذبحه؟ تأتي لحظة حاسمة لحل هذه العقدة، ويأتي الحل على دفعتين:

ظهور قطيع من حمر الوحش وهذا يجعل توتر المتلقي يخف فيقول في نفسه إن الأب سيقتل إحدى هذه الحمر ويقدمها لضيفه ويسلم ابنه من الذبح.

فبينما هم، عنتّ على البُعْد عانةً
ظمأً تريد الماء، فانساب نحوها
ولكن تبقى الحيرة قائمة، هل يصيب الأب إحداها أم يخفق في ذلك؟
فأمهلها حتى تروث عطاشها
فخرت نحوص، ذات جحش، فتية
فيا بشره إذ جرّها نحو أهله
لقد تمكن الأب من إصابة إحدى هذه الحمر وانفجرت الأزمة وأطمأن الأبناء وقرىء الضيف .
فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
ولم يغرّموا غرماً، وقد غنموا غنماً
لضيفهم، والأم من بشرها أمّا
وبات أبوه من بشاشته أباً

وصيته:

أما وصيته فقد تجرأ فيها بشيء يشبه تجرؤ أبي نواس في بعض أبياته الماجنة، وهذا يدل على نفسية حائرة مريضة أملت بها ظروف النشأة القاسية

يروى الحطيئة وصيته قبل موته رواية عميقة الدلالة على واقع نفسيته

قال صاحب الأغاني: " لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: " يا أبا مليكة أوص. " فقال: " ويل للشعر من رواية السوء " قالوا " أوص رحمك الله يا حطي " قال: من الذي يقول:

إذا أنبض الرّامون عنها ترنمت
ترنمُ تكلّي أوجعتها الجنائز.
قالوا: الشماخ قال: " أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب ". قالوا: " ويحك أهذه وصية! أوص بما ينفعك! " قال: أبلغوا أهل ضابى أنه شاعر حيث يقول:

لكل جديد لذة، غير أنني
رأيتُ جديد الموتِ غيرَ لذني
قالوا: " أوص ويحك بما ينفعك! " قال: أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول:
فيا لك من ليلٍ، كأن نجومه
بكلِّ مُغار القتلِ شدّتْ ببذبلٍ
قالوا: " اتق الله ودع عنك هذا " قال: أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث قال:
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
قالوا: " هذا لا يغني عنك شيئاً، فقل غير ما أنت فيه، فقال:
الشعر صعبٌ، وطويلٌ سلّمه،
زلتُ به إلى الحضيض قدّمه
قالوا: " هذا مثل الذي كنت فيه " فقال:

قد كنتُ أحياناً شديدَ المُعتمدِ
فوردتُ نفسي وما كادت تَرِدُ
وكنْتُ ذا غربٍ على الخصمِ ألدِ

قالوا: " يا أبا مليكة ألك حاجة؟ " قال: لا والله ولكن أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس له أهلاً " قالوا: فمن أشعر الناس؟ " فأوماً بيده إلى فيه وقال: " هذا الجحير إذا طمع في خير " يعني فمه، واستعبر باكياً فقالوا له: " قل لا إله إلا الله " فقال:

قالتُ وفيها حيدةٌ ودُغُرُ
عودٌ بربي منكمُ وحُجُرُ

فقالوا له: " وما تقول في عبيدك وإيمانك؟ " فقال: " هم عبيدُ قن " ما عاقب الليل والنهار " قالوا: " فأوص للفقراء بشيء " قال: " أوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لا تبور " قالوا: " فما تقول في مالك؟ " قال: " للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر " قالوا " ليس هكذا قضى الله لهن " قال: " ولكني هكذا قضيت " قالوا: " فما توصي لليتامى " قال: " كلوا أموالهم " قالوا فهل شيء تعهد فيه غير هذا؟ قال: " نعم تحملوني على أتان وتتركوني راكبها حتى أموت، فإن الكريم لا يموت على فراشه والأتان مركب لم يمُت عليه كريم قط " فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول:

لا أحدُ الأُم من حطيئة هجا بنيه وهجا المُرِيَّة

من لؤمِه مات على فرِيَّة

تفاصيل هذه الوصية كما يرى محقق ديوانه تظهر مخالفته لتعاليم الإسلام وحنينه إلى ميتة جاهلية (الحطيئة، 1993، ص 19). لقد تساوت لديه القيم فلم تعد مجدية بالنسبة له، فقد ضيقت هذه العقدة عليه حياته فما عادت لنفسه مكانة يعتد بها .. نعم تساوت عنده الأنوار والظلم .

أبو نواس:

الحسن بن هانئ _ ويكنى بأبي نواس _ يذكر ابن عساكر أن ولادته كانت خمس وأربعين ومائة بالأهواز بالقرب من الجبل المقطوع (ابن عساكر، 1332هـ، ص 279) وقيل إن أباه دمشقي كان من جند مروان بن محمد وقيل إن أمه عجمية نبأذة في الفرات وقيل : سندية يقال لها جُلْبَان. (ابن عساكر، 1332هـ، ص 27).

عاش طفولة معذبة جعلت منه ماجناً متمرداً، فقد كانت الشبهات تلازمه منذ صغره، يبدأ رحلة حياته بنسب مغمور في وقت تعالت فيه صيحات المفاخرة بين القبائل بأنسابها وأحسابها، وتعالى المفاخرة بين الشعوبيين والعرب أجمعين، ومفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين، ومناجزة بين العلويين والعباسيين، لقد تركت هذه المشكلة أثراً سيئاً في نفسه، إلى جانب هذه الشبه التي يعانها وقعت عليه شبه من جهة أمه، تلك المرأة الفارسية التي نقلته بعد وفاة والده إلى البصرة وهو ابن ست سنين، (ابن منظور، د.ت، ص 11) وكانت ذات سمعة سيئة فقد اتخذت من التعريس بين الرجال والنساء مهنة لها، وكان أبونواس صغيراً يبصر المجان والخلعاء في عرس دائم من الإباحية والفجور، وقد لصقت هذه السمعة به وصارت سُبَّةً عليه إلى ما بعد شبابه حتى قال فيه الشاعر الرقاشي :

أبونواس ابن هانبي والناس أظنُّ شيء
إن زدتُ حرفاً على ذا يا صاح فاقطع لساني
وأُمُّه جُلْبَان إلى دَقِيق المعاني
يا صاح فاقطع لساني

يريد : أنه ليس لجُلْبَان أب يُعرف.

وكانت الجارية عنان تغري به السفهاء والعيارين أن يصيحوا به كلما رأوه:

أبونواس اليماني والنغل أظنُّ شيء
إلى حُرُوف المعاني

هذا النغل هو " أبونواس"، وجُلْبَانُ أُمُّه التي كانت كما قيل ترضع أولاد الزنا وتربيههم، ولعل قدر هذا الفتى كان سيئاً أيضاً حين أسلمته أُمُّه إلى عطار يُبرئ العود، ليتعرف على بدر البراء صاحب الدكان الذي كان صاحب غلمان (ابن منظور، د.ت، ص 35) وأصبح أبونواس أحد غلمانه، (ابن منظور، د.ت، ص 14) وهذا يعني أن رفقاء أبي نواس ليسوا سوى غلمان مخنثين، ثم ساقه القدر ليتعرف على والبة بن الحُبَاب هذا الماجن الذي حثَّه على أن يصطحبه إلى الكوفة، (ابن خلكان، 1948، ص 274) وكان والبة أحد مجانها المشهورين وعنه أخذ أبونواس الفسق العملي والنظري (طه حسين. د.ت، ص 30) وفيها أيضاً التقى عصابة المجان الفساق منهم: الرقاشي ومسلم بن الوليد والحسين الخليع والعباس بن الأحنف، وكلهم كانوا " لا يستترون في معصية ولا يكفون عن فاحشة، وكانوا ينتقلون بمعاصيهم وأثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقعة، وكانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقاً ولا ديناً" (طه حسين. د.ت، ص 30) إضافة إلى هذه العوامل المتضافرة التي أثرت في نفسية أبي نواس نضيف نقطة ذات تأثير سيئ في نفسه ألا وهي حبه للجارية جنان، فقد كانت تهزأ به وتضطهده، لقد مثل هذا الحب عقدة مزدوجة في نفسه فقد أشعره هذا الحب بأنه عاجز عن التحرر من واقع الناس الذين يهزأ بهم و هو يعاني مصيرهم (إيليا حاوي، د.ت، ص 212). وإن شكك بعض النقاد في صدق هذا الحب (طه حسين، د.ت، ص 107) يقول : (أبونواس، 1984، ص 263)

ملاث قلبي نُدوباً فصرتُ صَبّاً كئيباً
علّمت دَمْعِي سَكْباً ومُقلتي نَحيباً

لقد تضافرت هذه العوامل التي أهمها هذا النسب المغمور في خلق هذه الشخصية المضطربة التي جعلت تنتقل بين القبائل باحثة عن نسب. يقول ابن منظور في نسبه: "كان دعياً يخلط في دعوته" (ابن منظور، د.ت، 23) كما أنه ادعى أنه من ولد عبید الله بن زياد بن ظبيان من تيم الله فقيل له إن الرجل مات ولا عقب له، فاستحى وهرب من تيم الله (ابن منظور، د.ت، صص 24، 25)، ثم جعل ينتقل بنسبه بين القبائل حتى ادعى اليمانية يقول: (أبونواس، 88، 1984)

وخمَّارٍ طرقتُ بلا دليلٍ
فقامَ إليّ مذعوراً يلني
وقال: أَمِنْ تَمِيمٍ؟ قلتُ: "كلا

ثم تنزَّرَ وادَّعى للفرزدق، وقَدَّم نزاراً عليهم يقول: (أبونواس، 1984، 552)
يا هاشمُ بنُ حُديجٍ لو عددتُ أبا
وقال يهجو اليمانية أيضاً: (أبونواس، 1984، 546)

لأزِدَ عُمانَ بالمُهَلَّبِ نِزوةً
وبَكَرُ ترى أَنَّ النُّبوةَ أُنزلتُ
وقالتُ تَمِيمٌ لا نرى أَنَّ واحدًا

ثم ندم على هجاء اليمين، ووجدهم له أنصر ولدعوته أقبل؛ فاعتذر إلى هاشم بن حُديج، فقال: (ابن منظور، د.ت، صص 29)
أهاشمُ خذْ مني رضاك وإن أتى
فأقسِمُ ما جاوزتُ بالشَّتمِ والدي

ثم هجا نزاراً: (أبونواس، 1984، صص 508)
واهُجْ نزاراً وأفرِ جلدتها
وفي هذه القصيدة يفخر بقحطان:

فافحَرَ بقحطانَ غيرَ مُكْتَنِبٍ
ولا تَرى فارساً كفارسِها
عمرُو وقيسُ والأشتران

ثم لا يتحرج في أن ينكر العرب جميعاً ليفخر ببني الأحرار: (الديوان، 1984، 102)
تراثُ أنوشروانِ كسرى، ولم تكنِ
مؤاريثُ ما أبقتُ تَمِيمٌ ولا بَكَرُ

عانى أبونواس آلام هذه العقدة التي بقيت تزعجه في كل مجلس وجعلته يحمل مقتاً وبغضاً لمن ينتقص قدره بسببها ولمن يتفاخر عليه بالنسب، ولهذا هجا القبائل التي تفخر بنسبها وافتخر ببني الأحرار حين قال: (الديوان، 1984، صص 193)

ولفارس الأحرار أنفُسُ أنفُسٍ
وإذا أنادُمُ عُصبةَ عَرَبِيَّةٍ
وعدتُ إلى قَيْسٍ، وعدتُ قوسها

لقد جنت هذه العقدة على الشاعر جنابات عدة، قادتته إلى المجون حتى صار إباحياً وإن كانت العقد النفسية لاتعيش في دوائر الإباحيين، إذ كانت العقدة بطبيعتها كبتاً وكتماناً، وكانت الإباحية مجاهرة بما يكبته الناس ويكتومونه، لكن مشكلة النسب شيء لايباح به ولايكشف إلا على المغالطة والتحدي وهذا ما فعله أبونواس.

نعم لقد قادتته إلى التحدي والتمرد، تمرّد على المجتمع وعاداته وتقاليده، وتهجّم على القيم الأخلاقية والدينية واستخفاف بالقيم الشعرية المعتمدة، كل هذا جعل منه العدو الأول للمجتمع الذي حال دون تحقيق أمانيه ورغباته ولاسيما الجارية جنان التي أحبها وحرّم منها والذين حرّموه كانوا يمثلون القيم الاجتماعية المعتمدة.

لقد انحدرت هذه الإخفاقات وما تبعها من كره وتمرد على تقاليد المجتمع إلى عقله الباطن، فكان استهجاناً لحياة العرب وأطلالهم استدعاء لما في عقله الباطن وكانت الخمر وسيلته التي يستدعي بها هذا التهجم أثناء غيبوبته بنشوة الخمر. (أبونواس، 1984، صص 11)

ولا تأخذُ عن الأعرابِ لهواً
دَعِ الألبانَ يَشربُها رجالُ
فأطيبُ منه صافيةٌ شمولُ

ويقول: (أبونواس، 1984، صص 46)
عاجُ الشقي على دارٍ يسألُها
وعُجبتُ أسألُ عن خمارةِ البلدِ

لَا يُرْقِئُ اللَّهُ عَيْنِي مَنْ بَكَى حَجْرًا
قَالُوا: ذَكَرْتَ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ أَسَدٍ
وَمَنْ تَمِيمٍ، وَمَنْ قَيْسٍ وَإِخْوَهُمْ
دَغْ ذَا عَدْمَتِكَ، وَاشْرَبَهَا مُعْتَقَةً
وَلَا شَفَى وَجَدَ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتِدٍ
لَا دَرَ دَرَكَ قَلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ
لَيْسَ الْأَعَارِبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
صَفَرَاءُ تُعْنِقُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالرَّبْدِ

وسخر من الواقفين على الأطلال، يقول: (أبونواس، 1984، 698)

مَالِي بَدَارٍ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا شَعْلُ
وَلَا رُسُومٌ، وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ
بِيدَاءٍ مُقْفَرَةٍ يَوْمًا - فَأَنْعَتَهَا
وَلَا شَتَوْتُ بِهَا عَامًا فَأَذْرَكَنِي
وَلَا شَدَدْتُ بِهَا مِنْ خِيَمَةٍ طُنْبًا
وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلَلُ
لِلْأَهْلِ عَنْهَا، وَلِلْجِيرَانِ مُنْتَقَلُ
وَلَا سَرَى بِي فَأَحْكِيهِ بِهَا جَمَلُ
فِيهَا الْمَصِيفُ فَلِي عَنْ ذَاكَ مُزْتَحَلُ
جَارِي بِهَا الضَّبُّ وَالْحَرْبَاءُ وَالْوَرَلُ

كان يزعجه التفاخر والتعالي القبلي ويوقظ في نفسه الألم الدفين، فقد كانت هذه العقدة من أقوى بواعث أبي نواس إلى معاقرة الخمر حيث يختار المجالس التي لا تسمع فيها المفاخرة بالأنساب: (أبونواس، 1984، ص 193)
وَلِفَارِسِ الْأَحْرَارِ أَنْفُسُ أَنْفُسٍ
وَإِذَا أَنْادِمُ عُصْبَةَ عَرَبِيَّةٍ
وَعَدْتُ إِلَى قَيْسٍ، وَعَدْتُ قَوْسَهَا سُبَيْتُ تَمِيمٍ، وَجَمَعُهُمْ مَهْرُومُ
وَفَخَّارُهُمْ فِي عِشْرَةِ مَعْدُومُ
بَذَرْتُ إِلَى ذِكْرِ الْفَخَّارِ تَمِيمُ

وأمام هذه الصيحات وهذا التعالي لم يكن أمام أبي نواس المغموز النسب إلا أن يرى رؤية ويختط منها ويصدق به ويشحذ لسانه دفاعاً عنه، فهو لم يكن صغيراً عند نفسه فيعترف عليها بالصغر والمهانة لذا فقد أرخى للسانته العنان في هذا المضمار، فذم القديم ونادى بالثورة عليه وسخر من حياة البداوة وجاهر بمجونه وبمعاقرة الخمر منادياً إلى ترك المقدمة الطللية مستبدلاً بها المقدمة الخمرية.

هذه الدعوة إلى نبذ القديم رأى فيها بعض النقاد شعوبية، والحقيقة أن القول بشعوبية الشاعر بعيدة عن الصواب فلو "كان شعوبياً للمحنا في شعره حيناً إلى دين آبائه وأجداده المجوسيين وعبدية النار وما إليها ولكننا لم نجد شيئاً من ذلك في ديوانه، بل العكس وجدنا ما يوحي بكرهه للنار وللمجوس ذلك من خلال مناجاته للخمرة (محمد الخشمان، 1977، ص 84)"، كان يذم القديم الذي تمسك به الشعراء، وكان الفخر بالنسب ركيزة هذا القديم، وقد دفعه هذا إلى الثورة عليه والدعوة إلى التجديد، بل ثار على المقدمة الطللية التي تعد رمزاً لهذا القديم، وسخر من الباكين على الأطلال منادياً بتركها ومواكبة الحياة الجديدة. أما القول بأن تنقل أبي نواس بين قبائل العرب باحثاً عن نسب فيمدح قبيلة ويهجو أخرى أمكنه من هجائها جميعها وبذلك استطاع بدهائه السياسي أن يحمل هجاءه على أنه تعصب لقبيلة عربية ضد قبيلة عربية أخرى ولا يحمل على تعصب لقومه الفرس ضد العرب، فإن في هذا القول تعسفاً، فأبونواس كان يبحث عن نسب له ولو سلم له ما تنقل بين القبائل باحثاً عنه، لكن تنقله بين قبائل العرب ينم عن لهفته على هذا النسب (العقاد، د.ت، ص 103).

لقد خلقت عقدة النسب عداء بين أبي نواس وهذا المجتمع القبلي فأدى هذا العداء إلى التصدع بينه وبين المجتمع، وقد قاده هذا التصدع إلى الإبداع والتجديد ذلك أن الباحثين في الدراسات النفسية يؤيدون النظرة القائلة بأن الإبداع والتجديد ينتجان عن خلل في التكيف بين الفنان ومجتمعه، فيذهب "لنجفيلد" إلى أن الإبداع الفني ينشأ بوجود صراع وأن حياة الفنان زاخرة بضروب من الصراع لا يحسن التغلب عليها إلا في ميدان التعبير الفني، وأن الإبداع الفني الدقيق يقوم على حياة ملؤها مشكلات تنثير القلق والاضطراب (سويف، 1970، ص 124).

نعم لقد كانت حياته مثالا لهذا التصدع ومن ثم ثار على كل قديم منادياً بالتجديد فعُدَّ ناقداً خبيراً بتأثير الحضارة في الشعر والأدب (قدامة بن جعفر، د.ت، ص 28) وتسبب زعامة الشعر الخمرى دون منازع و جاهر بحبها: (أبونواس، 1984، ص 28)

أَلَا فَاسَقْنِي خَمْرًا، وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ
وَلَا تَسْقِنِي سَرًّا إِذَا أُمُكِّنَ الْجَهْرُ

وأفصح عن سبب إقباله عليه بنهم فهي التي تبعث السرور إلى قلبه وهي التي تدفع الهموم وتبددها يقول: (أبواس، 1984، ص 131)

إِذَا خَطَرْتُ فِيكَ الْهُمُومَ فَذَاوَهَا
هَلَّا اسْتَعْنَتَ عَلَى الْهُمُومِ
وَيَقُولُ: (أبونواس، 1984، ص 137)
وَوَهَبْتُ لِلْعَيْشِ الْحَمِيدِ
بِكَأْسِكَ حَتَّى لَا تَكُونَ هُمُومُ
صَفَرَاءُ، مِنْ حَلَبِ الْكُرُومِ
بَقِيَّةَ الْعَيْشِ الذَّمِيمِ

وقد فسر بعض النقاد هذا الحب اعتماداً على ما يسميه علماء النفس بـ (التثبيت الفمي - oral fixation) ويحدث إما نتيجة إشباع مسرف في مرحلة معينة أو نتيجة إحباط شديد يؤدي بالطفل إلى الصعوبة في تجاوز هذه المرحلة، وبالنظر إلى حياة أبي نواس فقد كانت حياته مثالا للإحباط الشديد ذلك أنه حُرِمَ حنان الأبوين منذ طفولته وأنه عانى خسة في النسب وبالتالي لم تكن أمامه سوى الخمر إشباعاً لهذا الإحباط، وبها حقق وظيفتين: الهروب من واقعه المؤلم الذي يتضمن فشله في التواصل مع النساء، وعقدة النسب التي عانى منها الكثير إضافة إلى أنه حقق إشباعاً لميوله الفمية الطفلية التي حرم من إشباعها في طفولته الأولى (درويش، 1987، ص 378).

عدد من الدراسات تناولت شخصية أبي نواس وفقاً لمعطيات مدرسة التحليل النفسي فتعددت الآراء في شخصيته لكنها اتفقت في أن دلالات النشأة البيئية إضافة إلى دلالات التكوين الجسدي ودلالات المجتمع والعصر بحذافيره قد أسهمت في تكوين هذه الشخصية وما اعترأها من خلل.

أما نهاية الشاعر فقد اختلفت عن نهاية الحطيئة، ففي "الفرح والتهاني" يروى عن مسعود بن همام أنه قال: "ما رأيت أحداً أشد اعترافاً بذنوبه عند موته ولا جزعاً مما أتاه من أبي نواس، ولقد قرأت وصيته فكانت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا ما أوصى به المسرف على نفسه المغتر بأمله المعترف بذنوبه الحسن بن هاني أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضد ولا مثل وكل معبود سواه باطل (هدارة، 1969، ص 245) - نقلاً عن الفرح والتهاني ورقة مخطوط) وقد تحدث أبونواس عن نفسه فصورها أصدق تصوير: (أبونواس، 611، 1984)

وَلَمْ تَأَلْ جُهْدًا لِمَرْضَاتِهَا	رَضِيتَ لِنَفْسِكَ سَوَاتِهَا
وَصَغَّرْتَ أَكْبَرَ زَلَاتِهَا	وَحَسَّنْتَ أَقْبَحَ أَعْمَالِهَا
سَلَكْتَ سَبِيلَ غَوَايَاتِهَا	وَكَمْ مِنْ طَرِيقٍ لِأَهْلِ الصَّبَاتِ
وَلَمْ تَجْرِ فِي طُرُقِ لَذَاتِهَا	فَأَيُّ دَوَاعِي الْهَوَى عَفَّتْهَا
وَأَيُّ الْفَضَائِحِ لَمْ تَأْتِهَا	فَأَيُّ الْمَحَارِمِ لَمْ تَنْتَهِكْ
تُرِيكَ مَخَافَ فَرْغَاتِهَا	وَهَذِي الْقِيَامَةُ قَدْ أَشْرَفَتْ

الخاتمة:

ظهر من خلال البحث في الصلة بين دراسة الأدب وعلم النفس، وجود إشارات نفسية موجودة في كتب النقد القديمة وفي أشعار الأقدمين والمخضرمين، وفي ثنايا البحث إشارات إلى النشأة وعقدة النسب اللتين تركتا بصمتهما على شخصيتي الحطيئة وأبي نواس، وإن اختلفت نهاية كل منهما، فالحطيئة مات ميتة أقرب إلى الجاهلية، والتي تبين من خلال البحث أنها عائدة إلى شخصيته المضطربة، عطفاً على أنه لم يكن واضحاً في إسلامه فقد ارتد وأعلن ذلك في شعره، بيد أن أبا نواس له أشعار تتم عن ندم بالغ، وقد تبين أنها ليست بزهديات كما يزعم البعض، وإنما هي صور للندم تنتابه بين الفينة والفينة، ويقظة ضمير مردها إلى تكوينه النفسي وسعه ثقافته.

كما وأظهرت الدراسة أن عقدة النسب كانت هي المؤشر الأول على ما كان يختلج في نفس الشعارين، مع اختلاف بينته الدراسة بين تأثير العقدة المتعلقة بالنسب لدى كل منهما، فقد اقترنت عند الحطيئة بعقدة تسمى (عقدة نابليون) لما اعترى جسده من اختلال مرده إلى قصر القامة، وربما كان ذلك الشعور دافعه الأكبر إلى الهجاء المقذع، أما أبونواس فقد كان غير الحطيئة في الجسد والخلقة، وربما كان ذلك مما أغراه بانتهاج طريق المجون والسكر، في ظل وجود مظاهر المجون واللهو في بيئته التي عاشها. وأبرز البحث الآثار النفسية في شخصية أبي نواس في أخريات أيامه، حين جزع على ما كان منه، وأظهر تباريح ندم وتحسر، والتي انعكست في تأسفه لحظات احتضاره، وندمه على حياته التي لم يحسن العمل والخلق حين كانت الأيام سائحة وفسحة العمر مانحة.

بينما تبين من خلال نهاية الحطيئة أن الدنيا في زعمه بلا قيم، ففيها تساوت المثل والمثالب، ولا فرق بين هداية وظلال، ففي أواخر عمره لم تندثر آثار عقده النفسية المتعلقة بنظرته للناس ونظرة الناس إليه، فانتهى أمدّه ونفسه تتنازعها أنوار الإيمان وظلمات النقص وأوهام النفس الأمارة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- أبو نواس: الحسن بن هانيء الحكمي. (1984)، ديوان أبي نواس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت، دار الكتاب.
- الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني. (د.ت)، شرحه وكتب هوامشه عبد علي مهنا، الجزء الثاني، بيروت، دار الفكر.
- الخطيئة: أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك. (1993). ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دراسة وتبويب مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. (1948)، وفيات الأعيان، الجزء الأول، الطبعة الأولى، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، مكتبة النهضة العربية.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك. (1987)، جنان الجناس في علم البديع، تحقيق سمير حسين حليبي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن. (1332هـ)، التاريخ الكبير، الجزء الرابع، دمشق، دار روضة.
- قدامة بن جعفر: أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (د.ت).، نقد الشعر، تحقيق محمد خلفي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن المعتز: عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي. (1950)، طبقات الشعراء : تحقيق عبدالستار أحمد فراج، القاهرة، دار المعارف.
- ابن منظور: جمال الدين محمد بن الخرزجي. (د.ت)، أخبار أبي نواس، (ملحق مطبوع مع الأغاني) الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر.
- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. (2005)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثاني، تحقيق مفيد قميحة وحسن نور الدين، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ثانياً: المراجع:
- حاوي: إيليا. (د.ت)، فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب، بيروت، دار الثقافة.
- حسين: طه. (د.ت) حديث الأربعاء الجزء الثاني، القاهرة، دار المعارف.
- حمدان: محمد زياد. (2015)، توافق الشخصية والسلوك المدني، دمشق، دار التربية الحديثة.
- الخشمان: محمد، (1977)، شعوبية أبي نواس، مجلة أفكار، العدد 35، عمان، منشورات دائرة الثقافة والفنون.
- درويش: العربي حسن. (1987)، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر العربي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الراوي: بان حميد فرحان. (2007)، الخطيئة في معيار النقد قديماً وحديثاً، بغداد، دار دجلة.
- رفيق: محمد بن أحمد. (2021)، العنف ضد المرأة : تاريخه - أسبابه - علاجه، بيروت، دار العلم للملايين.
- سوييف: مصطفى. (1970)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، القاهرة، دار المعارف.
- عبد الفتاح: علي. (1998)، شخصيات أدبية، القاهرة، مكتبة ابن كثير.
- عرفة: الشيخ محمد. (أغسطس 1936)، المناقضة في شعر أبي نواس، مجلة الهلال، العدد العاشر، السنة 44، القاهرة، منشورات دار الهلال.
- العقاد: عباس محمود. (د.ت)، أبونواس، القاهرة، دار النهضة.
- فضل الله: إبراهيم. (2011)، علم النفس الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفارابي.
- مراد: يوسف. (1948)، مبادئ علم النفس العام، القاهرة، دار المعارف.
- المسلماني: أحمد. (2018)، الهندسة السياسية، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- معلوف: رفيق. (2003)، مفكرة الأيام: كتابات صحفية مختارة في أدب السياسة وثقافة الرأي والفكر، المجلد الثاني، بيروت، دار بيسان للنشر.
- هدارة: محمد مصطفى. (1969)، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.
- هصيص: علي سعيد. (2015)، وجه الخطيئة مرايا الاتهام والبراءة، عمان، دار عالم الثقافة.